تنمية المكان : هدف العلوم جميعا

أ.د. مضر خليل عمر

في كثير من الأحيان ، وعند العديد من الأشخاص فان المكان Place مرهون بالجغرافيا ، ويصعب عليهم تصور غير ذلك . وقد يكون عندهم بعض الحق في ذلك ، وهذه الورقة هدفها تسليط الضوء على موقع المكان في العلوم المختلفة و دور الجغرافيا في دراسة المكان . فكما لا جغرافيا بدون مكان ، كذا الحال لا علوم بدون مكان . فالمكان يجمع الجميع ليعيشوا وينشطوا و يتفاعلوا مع بعض من جانب ومع المكان نفسه من جانب آخر ليشكلوا شخصية المكان و كينونته . إنهم جزء منه ، عرفوا ذلك أم لا ؟ وهم من نتاج المكان .

التباين المكاني حقيقة لا مجال لمناقشتها لأنها بديهية ، مردها تباين موقع المكان قياسا بخط الاستواء ، و قياسا بمستوى سطح البحر ، و قياسا بالمسافة عن المسطحات المائية . فمع التدرج من خط الاستواء وباتجاه القطبين تنخفض درجات حرارة الأماكن ، وبالارتفاع عن مستوى سطح البحر تنخفض درجات حرارتها أيضا ، وبالابتعاد عن المسطحات المائية تتناقص الرطوبة وكميات الأمطار فيها . وبتضافر هذه المقاييس مع بعض تتعقد درجة تنوع الأماكن . وبما أن درجات الحرارة و الرطوبة يشكلان عاملين أساسيين (إضافة إلى العوامل الأخرى) في تشكيل الغطاء النباتي لسطح الأرض (المكان) فان التباين في مواقع الأماكن يصاحبه تنوع كبير في ظروف الحياة فيها ، وبالتالي تنوع البيئة الطبيعية والتي لها انعكاسها المباشر وغير المباشر على البيئة الاجتماعية في الأماكن وتنوعها وتعقدها . بعبارة أدق كل مكان له بيئته الخاصة به كما له شخصيته المميزة . فليس هناك مكانين توأم ، فلابد من اختلاف بينهما وان تشابها في المظهر العام .

وعند الحديث عن المكان (أي مكان كان) لا يقصد به بأبعاده الثنائية (الطول والعرض – المساحة) بل بأبعاده المتعددة والمتنوعة التي تشكلها خصائصه وسماته المميزة له طبيعيا وبشريا ويضاف إلى كل ذلك بعد الوقت الذي هو فيه لان كل شيء على وجه البسيطة متغير مع الزمن . فالمكان يتم التعامل معه بصيغة فضاء Space ويسميه البعض بالمجال لتوضيح أن المقصود تعدد الأبعاد وليس المكان ببعدين . فالعلوم جميعا تتعامل مع حالة دينامية وليست ساكنة ، ولو كان ما تتعامل معه ساكنا لانتهى دورها في المراحل الأولى من نشوئها . إنها تكتشف في كل يوم شيئا جديدا وتغيرا ما كان ملحوظا في زمن غابر وتعيد النظر في ما كانت تعتقد انه صواب سابقا . إنها جميعا تدرس مكونات الحياة على سطح الأرض (المكان) وعوامل وجودها و ديمومتها ، والحياة ومكوناتها متغيرة بطبيعتها و فطرتها . وكل علم اختص بجانب معين من الحياة وعناصرها أو احد معطياتها ، ولذلك فان العلوم مكملة لبعضها ، وما يطرأ على تخصص علمي ينعكس سلبا وإيجابا على التخصصات الأخرى ، وما يتوصل إليه علم تستفيد منه العلوم الأخرى آجلا أم عاجلا ، فمقولة توبلر صائبة في معظم الأحيان (أي

شيء مرتبط بكل شيء)) ، أنها عجلات متعاشقة تحرك بعضها لتسير عربة الحياة و مركبة العلم .

وقد أشير سابقا (في الأوراق البحثية الصادرة عن وحدة الأبحاث المكانية) إلى العلوم المعروفة بالعلوم المكانية Spatial Sciences ، ولا ضير من تكرار ذلك للتذكير ، وهي :-

1) العلوم الهندسية (معماري ، مدني ، مساحة)
2) علوم التخطيط (حضري ، إقليمي ، بيئي) وتعرف أيضا بالتخطيط المكاني
3) علوم الأرض (جيولوجيا ، جغرافيا)
4) علوم تقنية (نظم المعلومات الجغرافية ، التحسس النائي ، الكارتوكراف) .

تشترك هذه العلوم مع بعضها باعتمادها الخارطة أساسا في عملها ، والخارطة مبنية على قاعدة معلومات مكانية و مفتاحها مقياس الرسم و الرموز التقنية المستخدمة فيها . فيمكن القول بان لغتها مشتركة إلى حد ما ، والتقنيات التي تعتمدها مكملة لبعض و متبادلة (البرمجيات وقواعد البيانات على وجه الخصوص) . ولكنها ليست بمعزل عن العلوم الأخرى (غير المكانية) . حيث تطرح تساؤلات الإجابة عنها تصب في توضيح الفقرات السابقة ، منها :-

1- أي من هذه العلوم يستغني عن استيعاب نظريات آلية Processesالسوق ؟ (الاقتصاد)
2- أي من هذه العلوم لا يأخذ بالاعتبار نظريات آلية المجتمع و حركته ؟ (الاجتماع)
3- أي من هذه العلوم لا يتأثر بالأوضاع السياسية ؟ (العلوم السياسية)
4- أي من هذه العلوم لا يعتمد ما توصلت إليه العلوم المكانية الأخرى في دراساته و صناعة القرار فيه ؟
5- أي من هذه العلوم يتعامى عن طروحات العلوم الطبيعية ؟ (حياة ، فيزياء ، كيمياء ، طب ، وغيرها)
6- ألم تأخذ العديد من الأقسام العلمية بالمنظور المكاني Spatial Perspective في دراساتها و أبحاثها ؟ (الاجتماع ، علم النفس ، العلوم التربوية ، الاقتصاد ، العلوم السياسية ، الإدارة ، الفيزياء ، التربة ، الموارد الطبيعية ، علوم الحياة ، وغيرها)
7- ألم تعتمد العلوم تقنيات بعض و ظهر ما يعرف بالتقنيات المتبناة Surrogate Techniques ؟
8- أليست اللغة و اللهجات والعادات والتقاليد و الحضارة من سمات المكان ؟
9- أليست الرياضيات بمنطقها لغة مشتركة بين العلوم ؟ ومعيارا لها ؟
10- هل بقي شيء خاص بتخصص معين دون اعتماده من قبل العلوم الأخرى ؟
11- الم تتشكل أقساما علمية ومؤسسات أكاديمية و مراكز بحثية متعددة التخصصات لدراسة موضوعات مشتركة بصيغ فرق عمل ؟ والأمثلة عديدة ، منها على سبيل المثال لا الحصر :
   - دراسات بيئية Environmental Studies
   - دراسات حضرية Urban Studies

- دراسات التنمية Development Studies
- دراسات الإسكان Housing Studies
- دراسات إقليمية Regional Studies
- العلوم السلوكية Behavioral Sciences
- التحليل المكاني Spatial Analysis (مراكز بحثية)
- دراسات الجنس (النوع) Gender Studies
- دراسات العولمة Globalization Studies
- دراسات الفقر والحرمان Poverty & Deprivation Studies
- دراسات بحرية Marin Studies
- دراسات المناطق الجبلية Mountain Studies

ولزيادة في التوضيح ، ولتقريب الصورة لمن مازال غير مستوعب علاقة العلوم المختلفة بالمكان نذكر الآتي :-

- يهتم **علم الطب** ببيئة الأمراض ، و آلية انتشار الأوبئة (الحركة المكانية) ، و يرسم سياسة الوقاية والعلاج مكانيا على ضوء ذلك . فالمكان كما أشير آنفا رديف لمصطلح (البيئة) ، والانتشار مكاني بطبيعته . فالمكان جاء في البداية (بيئة نشوء) وفي الوسط (بيئة انتشار) و في النهاية (معالجة بيئية) . ثم ، ألم تصنف الأمراض حسب المناطق التي تسود فيها ؟ (أمراض المناطق الحارة ، أمراض المناطق المدارية ، أمراض المناطق الصحراوية ، وهكذا) .
- تدرس **الفيزياء** المادة حسب حالتها (صلبة ، سائلة ، غازية) . ومن ماذا يتكون المكان ؟ ويكفي الإشارة إلى أن نتائج الدراسات الفيزياوية مهما تصورنا بأنها بعيدة عن المكان ، فان تطبيقاتها (عاجلا أم آجلا) ستخدم الإنسان في المكان . فالمكان بدون الإنسان لا احد يهتم به ، وكل ما يفيد الإنسان ينمي المكان و يطوره و يحسن بيئته . فالفيزياء تدرس عناصر المكان و الحالة التي هو عليها . إنها تتعمق في دراسة التفاصيل الدقيقة للمواد المكونة للمكان .
- أرقى ما وصلت إليه **إدارة المؤسسات** في عصرنا الراهن هي الحكومة الالكترونية ، وهذه لا يمكن أن تكون ما لم تكن هناك قاعدة معلومات مكانية دقيقة و تفصيلية و محدثة دوريا . وغرف العمليات ، على اختلاف أنواعها و طبيعتها و مستواها ، تعتمد الخارطة لتوقيع الأحداث ومسارها ورسم المواقف والسياسات المناسبة . والخارطة هي تمثيل مصغر للاماكن التي تتم فيها العمليات . وحتى غرف العمليات في المشفيات تعتمد الصور والأشعة كخرائط لتحديد الأماكن المصابة وتقرير ما يتم إجراءه إزائها . ناهيك عن العمليات العسكرية و الأمنية و ما شابه . وحتى مواقع الشبكة الدولية (الانترنيت) تعتمد صيغة (خارطة الموقع) لتحديد مواقع الأبواب والعلاقة بينها .
- **التاريخ** هو استيعاب للأحداث الماضية من خلال معرفة المسرح الذي حدثت عليه ، والمسرح هو المكان و خصائصه وعلاقته بما يجاوره من أماكن . ولولا التباين المكاني

وتعارض مصالح الشعوب وصراعها على المكان لما كانت هناك أحداث ، ولما كان هناك تاريخ .

- تتناقل وسائل **الإعلام** المختلفة الأخبار والأحداث على اختلاف أنواعها و أهميتها ، و لتسهيل استيعاب المواطن لها تعرض خارطة أو لقطات عن المكان ذي العلاقة . فالمكان قد أصبح مفتاحا لفهم الخبر وتصوره . فكاترينا لا احد يعرف إنها إعصار إلا من خلال الخارطة ، وتسونامي يجهل المعظم ما هي دون الخارطة و الصورة المرافقة للاماكن التي تأثرت بها ، و العديد غيرها . إنها أماكن وقعت فيها أحداث لا تستوعب إلا بتحديد موقعها على الخارطة . ولهذه الأحداث انعكاسات على الأماكن القريبة منها والبعيدة ، فالأماكن تشكل متصلا ونظاما مكملا لبعض . إنها عناصر نظام الكرة الأرضية . هذا غيض من فيض .
- يستدل من هذا أن المكان هو البوتقة التي تنصهر فيها الأشياء جميعا ، وهذه الأشياء متنوعة جدا بتنوع التخصصات العلمية التي تدرسها . وان تنمية المكان لا يمكن أن ترتهن بتخصص علمي واحد لأنها ستكون مجزوءً ، وبالتي تفقد قيمتها وتأثيرها . فتنمية المكان عمل يشترك فيه الجميع ، كل من موقعه و تخصصه و خبرته . فكما المكان ملك كل من فيه ، فتنميته وتطويره واجب على كل من فيه أيضا . انه ملكية مشاعة تنظم العمل فيه قوانين و قواعد متعارف عليها .

وبعد ، فالأماكن تكمل بعضها و تشكل نظاما مميزا اسمه الكبير (الكرة الأرضية) و تسمياته الأخرى جاءت نتيجة تصغير مساحة أماكنه وليس أهميته . فالبيت نظام ، والمحلة نظام ، والمدينة نظام ، وهكذا صعودا . وكل نظام له مكانه على سطح الأرض ، وله مكانته عند قاطنيه . وحتى المكان نفسه (مهما كان صغيرا – غرفة النوم على سبيل المثال) فهو نظام بحد ذاته في الوقت الذي يمثل عنصرا في نظام اكبر منه (هنا البيت ، الذي هو عنصر في نظام المحلة) وساكني الغرفة يمثلون (أو يمثل) عنصر في نظام العائلة و هكذا .

ولكي تتضح صورة المنهج النظامي نشير إلى بعض الأمثلة . فالمنطقة التجارية المركزية CBD (السوق الرئيس في المدينة) تشكل نظاما تجاريا تتحكم فيه آليات السوق الاقتصادية ، وله انعكاساته المكانية على أسعار الأرض و أنماط توزيع استعمالات الأرض في المدينة . والمنطقة التجارية المركزية هي في الوقت نفسه عنصر في نظام المدينة ، والمدينة هي عنصر في النظام الحضري للبلد الذي تنتمي إليه ، وكل عنصر له وظيفته وله دوره في تحريك العناصر الأخرى في النظام نفسه ، ويرتبط معها وظيفيا و ومكانيا (المسافة عن بعض) . ونظرية الأماكن المركزية لكرستالر قد فصلت ذلك .

والمثال الآخر عن النظم المكانية والنظم التي يحتويها المكان يرد من حياتنا اليومية ، من المنزل ، من مطبخ المنزل بالذات . فكم نظام يحتويه المطبخ ؟ لنترك جانبا أن المطبخ عنصرا من عناصر المنزل ، ونتحدث عن عناصر المطبخ نفسه . نجد هنا مجموعة رائعة من النظم : الإنارة ، الإنتاج الزراعي ، تسويق المواد الزراعية (الخضروات ، الجافة) ،

التجهيزات المنزلية ، المحروقات و التدفئة ، المياه ، الصرف الصحي ، و نظم إدارة المنزل والعلاقات بين ساكنيه . إنها جميعا في مكان واحد ، ففي أي تخصص علمي تدخل دراسة المطبخ كمكان ؟

ولكن ، ماذا تدرس الجغرافيا ؟ (إذا كانت العلوم جميعا لها علاقة بالمكان و هناك علوم تستخدم الخارطة أيضا) . تمتاز الجغرافيا بثنائيتها ، ويقصد بالثنائية شمولها للجانبين الطبيعي والبشري ، ولهذا فان لها تماس مباشر وغير مباشر مع معظم إن لم يكن جميع العلوم الطبيعية والبشرية . وثنائيتها ترد أيضا من منهجها الدراسي (إقليمي – دراسة تفاعل العناصر الطبيعية والبشرية في المكان) و نسقي (الظواهر الطبيعية والبشرية وأنماطها المكانية وعلاقتها بالظواهر الأخرى) . يعني هذا أن كل مكان على سطح الأرض يشكل مادة دراسية للجغرافيا ، وأن كل ظاهرة طبيعية أو بشرية ذات توزيع مكاني تشكل مادة للدراسة الجغرافية .

فالجغرافيا تدرس التنظيم المكاني Spatial Arrangements للأشياء في المجال Space ، (والمجال كما أشير سابقا هو المكان بأبعاده المتعددة) . إنها تدرس نظام المكان Place System ، وتدرس نظام الأماكن Spatial System . إنها صريعة المكان والمسافة Distance بين ألاماكن و العلاقة بينها Autocorrelation . هذه هي الجغرافيا ، وهذه هي الحياة (أماكن و ذكرياتها والعلاقة بينها) . إنها دراسة نظامية System Approach للمكان و عناصره المكونة له ، تدرسه كنظام مفتوح Open System يؤثر بالنظم الأخرى (الأماكن) ويتأثر بها . إنها حقا دراسة معقدة جدا لذا قليل من يفهما واقل منهم يحبها فعلا . الكثيرون يسيئون فهمها ، وينعكس هذا على نظرتهم لها و للمختصين بها .

ورغم هذا ، وفوق كل هذا ، ماذا أضافت الجغرافيا للعلوم الأخرى ؟ وقبل الإجابة عن ذلك ، من الجوهري الإشارة أولا إلى ماذا أخذت من العلوم الأخرى لتضيف إليها لاحقا ؟ لقد أخذت الجغرافيا من كل تخصص علمي تماست معه و أضافت إليه ، أخذت عنه آليات عمل الظاهرات المعني بها ، و فسرت التوزيع الجغرافي و التغيرات التي تطرأ على هذه الظاهرات على ضوء هذه الآليات . وأخذت التقنيات التحليلية التي يعتمدها و طبقتها على المكان لتحليله وتفسير معالم شخصيته . و الإحصاء لامكاني بطبيعته التجريدية ، (على سبيل المثال لا الحصر) قد سحب لتطبيقات مكانية فظهرت تقنيات تحليلية مكانية Geospatial Statistics , Spatial Statistics , Spatial Analysis Techniques , و صدرت كتب ومؤلفات في هذه الموضوعات ، و كذلك برمجيات حاسوبية خاصة بها . لقد أدى هذا إلى جعل الخارطة الجغرافية أداة تحليل إحصائي معمق . لقد تشكلت بذور علم جديد ، علم ليس بالجغرافيا ولا بالإحصاء ، مزيج من الاثنين مضافا إليه التقنيات ذات الصلة من العلوم الأخرى وتطبيقات جديدة لم تكن بالحسبان .

كما أخذت من النظريات الحديثة الكثير ، النسبية ، المجموعات ، Cybernetic ، ومن المدارس الفكرية مدرسة شيكاغو على سبيل المثال لا الحصر . فقد ظهرت مدرسة شيكاغو في عشرينيات القرن الماضي معتمدة ما يحدث في الطبيعة لتفسير ما يحدث في المجتمع البشري (المدرسة البيئية) ، فكما الحشائش و الأدغال تتغلغل في الزرع و تنتشر و تسود إذا ما تركت دون المعالجة فان هذا الآلية تحدث في المدن في مجال استعمالات الأرض . حيث ينتشر الاستعمال غير السكني بالمناطق السكنية بالسياق نفسه . وقد اعتمدت هذه المدرسة تقنيات التحليل ألعاملي ، و أخذتها الجغرافيا لتعيد تصنيف المتغيرات و تكتلها للخروج بعوامل جديدة تفسر على أساسها الظواهر الجغرافية والإحداث . لقد اعتمدتها في رسم خرائط الأنماط المكانية للتركيب الاجتماعي – الاقتصادي للمدن والأقاليم . وكل تطبيق لفكرة أو تقنية في ميدان جديد يثمر عن إضافات نوعية للفكرة وتطوير لها .

لقد اشترك الجغرافيون في فرق عمل بحثية متعددة التخصصات في دراسات معمقة و كبيرة في ميادين التخطيط و الحفاظ على الموارد الطبيعية و حماية البيئة من التلوث وإدارة الموارد المائية و التسويق وتوقيع الخدمات المجتمعية و تقويمها ، والقائمة لها أول وما تزال بدون نهاية . وفي معظم إن لم يكن جميع مساهماتهم هذه كانوا في مواقع متقدمة ، ويعود السبب إلى :-

(1) وجود لغة مشتركة مع أعضاء الفريق من العلوم المختلفة (المنطق الرياضي ، لغة الأرقام)
(2) القدرة التحليلية (النظرة النظامية في تحليل شخصية المكان)
(3) القدرة على استقراء المستقبل من خلال دراسة الحاضر وتفسير نتائجه على ضوء الماضي .
(4) الخارطة التي تشكل محور عمل الجغرافيا وعمودها الفقري ، والتي أضحت أداة مشتركة في التوضيح و في خزن المعلومات و في التحليل وفي التفسير وفي التوقع و استشفاف السيناريوهات المحتملة .

ولكن ، كيف تأتى هذا للجغرافيا ؟ في الواقع إن عملية التماس بين العلوم هذه ذات فائدة كبيرة للأطراف المتماسة ، فالتماس لم يؤدي إلى انتقال الأفكار و الوسائل والأدوات فقط ، بل إلى انتقال الأشخاص أيضا ، وهؤلاء أضافوا للجغرافيا خبرتهم في تخصصاتهم الأصلية ، مطوعيها للفلسفة المكانية لتكون النتائج جغرافية في محصلتها النهائية . وقد ناقش الجغرافيون الأمريكيون ذلك في مؤتمر جمعيتهم AAG المئوي متسائلين : من نحن ؟ ولا غرابة من ذلك ، فددلي ستامب (الانكليزي المشهور الذي منح لقب Sir لخدماته الجليلة في الجغرافيا الاجتماعية كان تخصصه الأصلي الجيولوجيا) ، و كودجايلد الجغرافي الأمريكي المعروف تخصصه فيزياء ، ولا مجال لذكر المزيد .

إن استحداث وحدة الأبحاث المكانية هدفه مزدوج : نقلة نوعية في العمل البحثي من خلال فرق عمل متعددة التخصصات ، و إعطاء فرصة للجغرافيين في جامعة ديالى لإثبات

الوجود والتماس مع الآخرين لتطوير قدراتهم البحثية . الانتقال من صيغة العمل بالمكاتب Office work إلى سياقات عمل الورش Station work ، وهذا ما لم يتم استيعابه لا من العمادة ولا من قبل الجغرافيين أنفسهم ، وهنا الطامة الكبرى . وهنا يكمن مقتل وحدة الأبحاث المكانية لأنها ستكون مسخا مشوها لا قيمة له ولا معنى طالما بقيت رهينة قسم الجغرافيا . إن فرص الانتقال النوعي تكون أوسع عندما تكون وحدة الأبحاث المكانية في كلية ليس فيها قسم جغرافيا ، وتكون تشكيلة الباحثين من تخصصات علمية منوعة مشتركين في الموضوعات يتبادلون الأفكار والآراء والخبرات . حينها تكون الفائدة أعم ، و في المحصلة النهائية لصالح الجغرافيا والجغرافيون لو كانوا يعلمون . حسبي الله ونعم الوكيل .